

## الحجاج بين المفهوم والتطبيق

### مَوْضِعُ التَّمثِيلِ مِنَ الْحِجَاجِ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

زقنون نصيرة

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة - الجزائر

احتل التمثيل مكانته السامية بين فنون البلاغة من حيث إحدائه الأثر الأكبر في النفس لما يشتمل عليه من عناصر الصورة التي تخاطب الوجدان وتحمل في طياتها التدبير الفني للعمل الأدبي الذي يقوم مقام البرهان العقلي والحجة المنطقية في العمل. فالتمثيل إذا تقنية خاصة في العملية الحجاجية، تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها؛ فما يوفره التمثيل من طاقة حجاجية قادرة على إثارة المتلقي وشغل تفكيره بالبحث عن العلاقة التي تجمع بين صورة المشبه والمشبه به، وما تحدثه هذه العلاقة التصويرية من أثر في نفس المتلقي تحمله على الإقناع والقبول بتلك التمثيلات. يرى النبي "صلى الله عليه وسلم" في التمثيل وسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المسلمين من جهات عدّة، فهو ينقل العقل من المعنى في الحالة التصويرية العادية إلى الحالة التصديقية، لأنّه بمثابة المحرك للنفس، إذ يشير إلى المعنى في الخارج بعد قوله، ليشاهد، فيؤدّي إلى نفي الرب والشك عن المتلقي. ولما كانت غاية الرسول "صلى الله عليه وسلم" هي التبليغ والتأثير في المسلمين، نجده "صلى الله عليه وسلم" يتفنّن في صياغته للتمثيل معتمدا على أحدث تقنيات الحجاج وعلاقاته.

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ الحجاج؛ التمثيل؛ المتلقي؛ التصديق؛ الرسول؛ التصوير؛ الإقناع؛ التأثير.

#### Argumentation/Rhetoric between Concept and Application:

#### The Locus of the Representation of the Rhetoric in the Hadith

**Abstract:** Representation has occupied its supreme position among the rhetorical arts in terms of making the greatest impact on the soul, as it includes the elements of the image that address the spiritual and carries in its folds the artistic measures of the literary work which takes the place of mental proof and the rational argument in the work. Representation is, therefore, a special technique in the rhetorical process, based on

تاريخ تسليم البحث: 02 فبراير 2016.

تاريخ قبول البحث: 25 ديسمبر 2016.

analogy/simile between two cases at the upstream, and it is intended to conclude the end of either of them by looking downstream at its analogies; The argumentative energy provided by the representation is able to excite the recipient and occupy his thinking by searching for the relationship that brings together the image of the compared/assimilated and the compared to/assimilated to, and the effect this pictorial relationship has on the recipient has the same effect on persuasion and acceptance of these representations. The Prophet, may Allah bless him and grant him peace, sees representation as a rhetoric tool with influences on Muslims from many facets, as it conveys the mind from the meaning in the ordinary pictorial state to the authentication one, because it acts as the soul's engine, pointing to the external meaning after saying: observing, leading to the denial of suspicion and doubt on the recipient. And since the goal of the Messenger, may God bless him and grant him peace, was reporting and influencing Muslims, we find him, may God bless him and grant him peace, elaborating his formulation of representation based on the latest rhetorical techniques and his relationships.

**Keywords:** Rhetoric, argumentation, assimilation, recipient, certification, messenger, portrayal, persuasion, effect.

توطئة: يغدو الحجاج سمة في الخطاب وطابع فيه ووظيفة له ووسيلة لتحقيق هدفه؛ فهو الركيزة الأساسية في إيصال الأفكار وتحقيق المقاصد بين المتكلم والمتلقي ونجده يتضمن كل وسائل الإثارة والإقناع والتحاوّر لاسيما في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وفي الخطابات الفلسفية والقضائية وغيرها...، فهو إبدأً موضوع متشعب الروافد ومتعدد المنابع. ودراسة الخطاب الحجاجي يوغل به التاريخ منذ القدم إذ يعود إلى الحضارة اليونانية حيث كان مزدهرا جدا ويوظف البرهان والحوار بغرض الإقناع والتأثير.

فالحجاج بالمعنى العادي هو عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع فيكون بذلك الخطاب ناجعا فعّالا غير أنّه ليس معيارا كافيا؛ إذ يجب ألاّ تُهمل طبيعة السامع المُستهدف من هذا الحجاج، فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسامع ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة في إقناعه.<sup>1</sup>

أمّا الحجاج بمعناه الفني فيدل على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والدرجة في اللسان، ضمن المحتويات الدلالية والخاصية الأساسية للعلاقة الحجاجية أن تكون درجة salaire أو قابلة للقياس بالدرجات، أي أن تكون واصله بين سلالمة.<sup>2</sup> وخلال هذا المقال سنحاول الحديث عن التمثيل وعلاقته بالحجاج، ومدى تأثيره وإقناعيته في الخطابات بصفة عامة، وفي الحديث النبوي الشريف بصفة خاصة وفق الشكل الآتي:

1- مقومات الحجاج: إنّ الغاية من النظرية الحجاجية هي استمالة المتلقي أو المستمع، كونه اللبنة الأساسية في العملية الحجاجية، فالعناية به هو العناء الأكبر الذي يحمله المتكلم أثناء إنجازهِ للخطاب؛ ولما « كانت الغاية من الحجاج هي إثارة مستمع ما واستمالاته نحو الأطروحات المراد تزكيتها أو زيادة التزكية، وليس استنباط النتائج من بعض المقومات، فإنها لا

تدور في فراغ، إنها تقتضي تماسا فكريا بين الخطيب والمستمع، ينبغي للخطاب أن يكون مسموعا ولكتاب ما أن يكون مقروءا، إذ بدون هذا يغدو تأثيرها صفر.<sup>3</sup>، فالإبانة والإيضاح هي من الضروريات التي يقوم عليها بناء الخطاب الحجاجي .

إن تعدد المتلقي واختلاف المقامات وظروف بناء الخطاب، تجعل الحجاج يتغير؛ فهو «عرضة للتغيير والتحوير في بنائه واتساقه الذي يقوم عليه. وذلك تبعا لتغير المقام وتغير ظروف المحاجج، حتى وإن ظلّ النقاش هو ذاته»<sup>4</sup>، فكل مقام يفرض على المتكلم طرقا خاصة وحججا نوعية يرى فيها المتكلم غايته في الإقناع والتأثير.

عندما يبث المتكلم خطابه فهو لا يقوم في هذه الحالة بتحديد أو اختيار المتلقي، أو يفرض على مخاطبه تلقي الرسالة؛ لأنّ الخطاب يكون مفتوحا للتأويل، قد يخرج عن مقصد المتكلم أو تتعارض معه، فيطالها التغيير والتبديل بالحذف والزيادة<sup>5</sup>، كما يتوجب على المتكلم معرفة المتلقي متى رام تحقيق التأثير والإقناع؛ كون المتلقي عنصرا فعالا لا يستقر على حال» والمتكلم لا يستطيع تخيل هذا الخطاب ما لم يكن على دراية عميقة بأحوال المخاطبين الراهنة، وبموروثهم الثقافي والحضاري ومهموم مستقبلهم.<sup>6</sup>، فمن مقومات الحجاج الاهتمام بالمتلقي وأحواله، كونه العماد الذي تقوم عليه العملية الإقناعية الحجاجية.

وبإسقاط ما تمت الإشارة إليه من مقومات الحجاج على الأحاديث النبوية الشريفة، يمكننا القول أنّ المتكلم هو النبي " صلى الله عليه وسلم " ، والذي كلفه الله عز وجل برسالة تحمل في طياتها العديد من العقائد والأخلاق التي يأمر "صلى الله عليه وسلم" بالالتزام بها أو الانتهاء عنها، وهذا ما يستدعي منه طرقا وتقنيات حجاجية تعمل على التأثير في المتلقي قصد إقناعه واستمالته.

في حين يعدّ المتلقي لأحاديث "النبي صلى الله عليه وسلم" مفتوحا على مرّ الزمان، قد يكون واكب حياة النبي "صلى الله عليه وسلم" فحضر جميع خطبه وأحاديثه، أو لم يسمعها مباشرة بل تلقاها عن طريق قراءتها في كتب السيرة المعروضة في جميع أنحاء المعمورة.

وفي هذا الشأن يرى بيرلمان Ch.Perelman وتيتيكاها O.Tyteca عند تمييزه بين الخطابة والحجاج، أنّ جمهور الحجاج يمكن أن يكون حاضرا أو غائبا، كما يمكن أن يكون منشأ الحجاج بين شخصين اثنين متحاورين أو بين المرء ونفسه، أمّا من جهة نوع الخطاب، فإنّ الخطاب الحجاجي يمكن أن يكون منطوقا كما يمكن أن يكون مكتوبا.<sup>7</sup>

2- مسلمات الحجاج: تكون غاية المتكلم عادة هي الحرص على التأثير والإقناع، وهذا ما يجعله يعتمد منطلقا حجاجيا يبني عليه خطابه، فيعتمد على مسلمات هي بمثابة المقدمات المتعلقة بالقضايا التي منها يكون الانطلاق Propositions de départ فهي نقطة انطلاق

## المجاج بين المفهوم والتطبيق..... مجلة فصل الخطاب

الاستدلال، ومن غيِّبها في خطابه فقد يقترف خطأ كبيرا وهو المصادرة على المطلوب<sup>8</sup>، ومن هذه المسلمات نذكر:

2-1- الوقائع **Les faits** : تمثّل ما هو مشترك بين عدّة أشخاص أو بين جميع النَّاس. والوقائع لا تكون عرضة للدَّحض أو الشكّ وهي تشكّل نقطة انطلاق ممكنة للحجاج، «و تنقسم الوقائع إلى وقائع مشاهدة معاينة من ناحية، ووقائع مفترضة *faits supposées* من ناحية أخرى، وهذان النوعان من الوقائع قد يفقدان لسبب أو لآخر طابعهما كوقائع، بمعنى حقائق. ولكن من حيث هما وقائع، فإنهما يكونان متطابقين مع بنى الوقائع التي يسلم بها الجمهور»<sup>9</sup>، فالوقائع ضرورة يعمد إليها المتكلم كون الواقع يفرض نفسه على المتلقي والمتكلم معا، أما الحقائق فهي أنظمة تقوم على الرّبط بين الوقائع. ومدارها على نظريات علميّة أو مفاهيم فلسفيّة أو دينيّة وقد يعمد الخطيب إلى الرّبط بين الوقائع والحقائق؛ ليحدث موافقة الجمهور على واقعة معيّنة غير معلومة.

2-2- الافتراضات **Les présomptions** : تحدّد الافتراضات بالقياس إلى ما هو عاديّ أو محتمل، لكن هذا العادي وهذا المحتمل يتغير بتغير الحالات.<sup>10</sup> و لذلك لا يكون الإذعان لها والتسليم بها قويا ما لم تستند في مسار الحجاج إلى عناصر أخرى تقوّمها.

2-3- القيم **Les valeurs** : يقوم الحجاج بكل ضروبه على القيم فهي بالنسبة « إلى مجالات القانون والسياسة والفلسفة غذاء أساسيا، فهي التي يعول عليها في جعل السامع يذعن لما يطرح عليه من آراء»<sup>11</sup>، وهي نوعان: مجردة من قبيل العدل والحق، ومحسوسة من قبل الوطن. ويعمد المتكلم هذه القيم في حجاجه كمسلمات ثابتة « بحيث تلائم أهدافه الحجاجية وغايات خطابه المنشودة، فترى المتكلم يرفض فكرة ما بحجة أنّها تعارض قيما معيّنة ويدعو إلى موقف ما باسم قيمة محددة، وينعي على الخصم سلوكا ما؛ لأنّه يتنافى مع قيمة واحدة أو مجموعة قيم»<sup>12</sup>، فالتفضيل والاختيار بين القيم هو عمل يقوم به المتكلم وهو على دراية تامة بإقناعية القيم الواحدة دون الأخرى.

2-4- الهرميّات **Les hiérarchies** : تخضع كلّ قيمة إلى هرميّة ما فالجمال درجات والقيح درجات. وبين المحسوسات هرميّة ما فالإنسان أعلى درجة من الحيوان مثلا. وهذه من قبيل الهرميات الماديّة المحسوسة. وإنّ هرميّة القيم في البنية الحجاجيّة أهمّ من القيم نفسها. وما يميز كلّ جمهور ليس القيم التي يسلم بها بقدر ما يميّزه ترتيبه إيّاها<sup>13</sup>.

2-5- المواضع **Les lieux**: تتصف هذه المسلمة على أنّها أعمّ من القيم والهرميات؛ لأنّها تشكل نوعا من العلاقات بين « المنطق والواقع، تؤسس بفضل الصلة بين القضية العامة والقضايا المشتركة»<sup>14</sup>، فهي ليست حججا في حدّ ذاتها إنّما « لا قيمة لها في ذاتها بقدر ما تكمن

قيمتها في ما تؤديه من وظائف في الخطاب، فهي بمثابة الأوتاد التي تشد الملفوظ إلى مرجعية لها سلطة دامغة تجعل من المتقبل يذعن ويسلم بما في الخطاب وعليه اعتبر بيرلمان Perelman المواضيع بمثابة الخانات أو الأقسام les Rubriques التي يقع تحتها ما يؤيد الحجج، التي يلجأ إليها المتكلم كلما أراد التشريع لمطلبه من الخطاب لما فيها من صبغة استدلالية.<sup>15</sup> فالمواضع بهذا التعريف هي بمثابة المسلك الحجاجي للإقناع تقوم عليها جميع الخطابات.

3- الوظيفة الحجاجية للحديث النبوي الشريف: يعتبر الحجاج لازما من لوازم بناء كل خطاب فهو «لم يعد نشاطا لسانيا من بين أنشطة أخرى، لكنه أساس المعنى نفسه، وأساس تأويله في الخطاب»<sup>16</sup>، فالحجاج إذا لا يمس القالب الأسلوبي، بل يهتم اهتماما بالغا بالمعنى، فالإخبار هو صفة ثانوية في الخطاب بالمقارنة بصفة الحجاج الإقناعية.

يعتمد الخطاب على إيجاد طريقة منظمة للإقناع؛ لأنّ المبادئ التي تستند إليها مظنونة يتولد عنها إنتاج قول يبني به الإقناع في مجال المحتمل، فيسعى هذا إلى التأثير واستمالة المتلقي، إذ لا يكون الإقناع عبثا وإنما يعتمد البرهنة والاستدلال كي يبقى الحجاج وسيلة لتقاسم الرأي مع الآخر بعيدا عن العنف والتضليل.

إنّ تناولنا للخطاب لا يخرج عن كون اللغة ليست مجرد أداة للتعبير عن الأغراض الخارجة فقط، وإنما هي أساسا «حقيقة حوارية يتواجه فيها عالمان لغويان مختلفان يصيران تدريجيا إلى التداخل فيما بينهما، فتدشّق من هذه لغة متجددة تحمل معاني غير مسبوقه، وبهذا يكون الفهم في نهاية المطاف عبارة عن تفاهم»<sup>17</sup>، فإذا كان وجود اللغة هو وجود حوارى، فهذا يؤكد المنطق الذي بُنيت عليه لغة الحديث الشريف، من حيث هي لغة وحجة بالغة، وهذا يندرج ضمن ما تسعى إليه سمائيات التواصل من دراسة أساليب التواصل؛ أي الوسائل المستعملة قصد التأثير، وإذ يعيدنا ذلك إلى الوظيفة الأساسية للغات.<sup>18</sup> وهذا ينطبق على الخطاب الحجاجي الذي يهدف إلى التأثير على مواقف وسلوك مخاطبين أو جمهور؛ وذلك يجعله يتقبل ملفوظا معينا أو نتيجة معينة بالارتكاز على ملفوظ أو ملفوظات أخرى.

يتمثل الشكل النموذجي للحجاج في الربط بين المعطيات والنتيجة، كما يمكن أن يكون هذا الربط مؤسسا صراحة، أو ضمنيا بواسطة ضامن أو سند، وتكون المعطاة هي الظاهرة والسند هو المضمّر في أغلب الأحيان، أما العناصر المكونة للمقطع الحجاجي فهي تتأرجح بين الظهور والإضمار.<sup>19</sup>

تعود أهمية الحجاج في الدراسات الحديثة إلى العودة القوية للبلاغة تحت تسمية "البلاغة الجديدة"؛ حيث ركّزت على جانبيين هما البيان والحجاج كوسيلة أساسية من وسائل الإقناع، لذلك يمكننا أن نعدّ الخطاب النبوي خطابا حجاجيا؛ كونه جاء ردّا على خطابات

## الحجاج بين المفهوم والتطبيق..... مجلة فصل الخطاب

تعتمد عقائد ومناهج فاسدة. فهو يطرح أمرا أساسيا يتمثل في عقيدة التوحيد ويقدم الحجج بمستويات مختلفة، والمدعمة لهذا الأمر ضد ما يعتقد المتلقون من مشركين وملحدين ومنكرين للنبوّة.

إنّ في اختلاف مستويات التلقي هذه ما يؤكد الصفة الحجاجية للحديث النبوي؛ لأنّها خاصة أساسية من خصائص الخطاب الإقناعي، الذي يعرفه الدرس الحديث من الناحية الوظيفية من حيث أنّه موجّه للتأثير على آراء المخاطب وسلوكه. وذلك يجعل أي قول مدعم بمختلف الوسائل، ومن خلال مختلف الصيغ اللغوية إذا اعتبرنا أنّ هذه الصيغ هي أفعال كلام تمارس وظيفة الإقناع من خلال قوتها الكلامية التي تتجلى بدورها من خلال طرائق منطقية في البناء والربط والعلاقات الاستدلالية التي يمثل الحجاج أبرز مظاهرها.

4- البلاغة الجديدة والحجاج: تعوّل النظرية الحجاجية على البلاغة وترى فيها طاقات عظيمة جدا، إلى حدّ اعتبارها حجاجا في حدّ ذاتها؛ بحيث يكون « وراء كل حجاج بلاغة، والعكس صحيح، لأنّ مدار ذلك هو الإغراء والاستغواء، قصد الامتاع والإقناع»<sup>20</sup>، لذلك فقد حازت الألوان الأدبية بصفة عامة على أهمية بالغة في شتى الخطابات؛ وذلك لما تحققه من استمالات أسلوبية في الخطابات الحجاجية على اختلاف أنواعها.

ومن هنا اتّضح أهميّة البلاغة في تحقيق الحجاج في سائر الخطابات الإنسانية، سواءً أكانت البلاغة مقصودةً مستغلّة في عمليّة الحجاج، أم كانت عرضيّة تزيد في القوّة الإقناعيّة والتأثيريّة للخطاب، وهذا ما ترجم التوجّه العجيب إلى البلاغة لاستكناه ما فيها من أساليب تأثيريّة وأدوات إقناعيّة، ولقد اشتهرت أساليب بلاغيّة عديدة تحوي طاقات حجاجيّة معتبرة، إلى درجة تسميتها بالاستدلال الحجاجي في البلاغة؛ من ذلك "التمثيل" الذي عرف اهتماما بالغا في مجالات كثيرة، لما له من تأثير فني جمالي وآخر حجاجي إقناعي.

منذ نهاية عقد الخمسينيات في القرن العشرين شهدت الدراسات البلاغية صحوة نوعية، فكانت الدعوة لما سُمي "بالبلاغة الجديدة"، وهي محاولة لإقامة علم عام لدراسة الخطابات بأنواعها، فأصبحت تسعى لأن تكون علما واسعا يشمل حياة الإنسان كلها في المجتمع وذلك بوصف الخصائص الإقناعية للنصوص، فالمنهج اللسانية الحديثة التي تأثرت بها البلاغة تنظر إلى اللغة كنسق تتفاعل عناصره في إطار علائقي يرفض دراسة الكلمات في ذاتها، بل يهتم بدراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تُقدّم لهم أو تعزّز هذا التأييد.

ظهر هذا الفكر مع بيرلمان Ch.Perelman وتيتيكاه O.Tyteca في كتابهما الشهير "مصنّف في الحجاج- البلاغة الجديدة"<sup>21</sup>، وقد ركز فيه المؤلفان كثيرا على مبدأين رئيسيين

هما: القصد والمقام؛ ويعمد هذا التصور الحجاجي إلى « اكتساب خبرة منهجية دقيقة في تحليل نصوص ذات طبيعة حجاجية قوية كالنصوص القضائية والسياسية والفلسفية، بناء على تصور تفاعلي بين الذات المتكلمة والمخاطبين، وعلى الرغم من مميزات هذا التصور، فإنه يقصر الحجاج على بعض التقنيات والآليات البلاغية والمنطقية، وهو ما يدفعه إلى تقسيم الخطابات إلى خطابات حجاجية ذات طبيعة إقناعية، كالمناظرات والمجادلات الدينية والفلسفية والسياسية والقانونية، وأخرى غير حجاجية. بينما يتبنى التصور التقني للحجاج تقسيما آخر تصير بمقتضياته الخطابات المختلفة التي تستعمل لسانا طبيعيا خطابات حجاجية بدرجات مختلفة. <sup>22</sup> « فهذا التصور الجديد خلّص الحجاج من أسر المنطق والأبنية الإستدلالية المجردة، إلى مساحة أوسع هي كل استخدامات اللغة مثل العلوم الإنسانية والفلسفية والقانونية.

تتعلق البلاغة عند "بيرلمان" و"نيتكا" بشروط أساسية، كأن يحصل تفاعل بين الخطيب والجمهور أو بين المحاج والمحجوج، وفي هذا الصدد يقول علي الشعبان في كتابه "الحجاج بين المنوال والمثال": « الحجاج ليس استدلالا تحليليا يدور في حقل البرهان المنطقي المحض وخارج كل اندراج للذات، بل يطلب أمرا آخرًا معاكسا لذلك تماما وهو وجود العلاقة التفاعلية بين الباث والمتقبل»<sup>23</sup>، فمن هنا تفهم بلاغة "بيرلمان" على أنها تأثير متبادل بين الخطيب والجمهور شمل طبيعا حقل الخطاب لغاية إقناعية.

كما تنزل أيضا البلاغة الجديدة عند "بيرلمان" على ضربين أساسيين: الضرب الأول تمثله البلاغة البرهانية، حيث يقوم على البرهنة والاستدلال في المحاجة، كما يشترط العقل كشرط أساسي ويكون جمهوره ضيق غايته بيان الحق. أما الضرب الثاني فهو يهتم بدراسة التقنيات البيانية التي تسمع بإذعان المتلقي، وغرضه دغدغة العواطف وإثارة أهواء، اللسامعين<sup>24</sup>، وهنا يكون للتمثيل الحظ الأوفر في الدراسات الحجاجية لما له من اجتماع بين الضربين؛ ضرب يكون فيه التمثيل حجة عقلية تستدعي من المتلقي استحضار العقل للجمع بين المتشابهين، وضرب آخر يحوز فيه التمثيل على شطر كبير من استمالة وإثارة للمتلقي من جهة أخرى.

وهذا يكون بيرلمان قد قدم تعريفا جديدا للحجاج يجعله جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الإقتناع بما تعرضه عليه، والزيادة في حجم الإقتناع، معبرا عن غاية الحجاج الأساسية إنّما هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو تهيئته إلى القيام بالعمل.<sup>25</sup>

## العلاج بين المفهوم والتطبيق..... مجلة فصل الخطاب

وليست البلاغة الجديدة عند بيرلمان «معنية بشكل الخطاب من أجل الزخرف أو القيم الجمالية؛ بل من جهة كون ذلك وسيلة للإقناع وخاصة وسيلة للإبداع أي الحضور»<sup>26</sup>. فهي بذلك بلاغة تهتم بإقناع المتلقي وليست استمالاته فحسب.

ومن أهم أفكار "بيرلمان" أنه يعتبر الإقناع الوظيفة الأساسية للبلاغة وليس التأثير. وفي هذا السياق يقول: «نقصد بالحجاج المؤثر ذلك المتوجه إلى مستمع خاص، وبالإقناعي المصوب نحو كائن عاقل. فالفرق دقيق، ورهين بمفهوم الخطيب للعقل»<sup>27</sup>.

ومن أفكار "بيرلمان" الأخرى أنّ الصورة البلاغية ليست صورا فنية وجمالية وتزيينية وظيفتها الإمتاع فقط - كما هو سائد في البلاغة القديمة-، بل هي من طبيعة حجاجية وإقناعية بامتياز؛ فهو يعتبر الصور البيانية «صورا حجاجية ذات منظور مغاير؛ إذا بدا استعمالها مألوفا بالنسبة لوضعها الجديد المفترض. أمّا إذا لم يهدف الخطاب إلى استجلاب موافقة المستمع لهذه الصيغة الحجاجية، فإنّ الصورة ستصبح محسنا بديعيا، لا تعدو أن تغدو مبعث إعجاب أو مصدر استحسان الخطيب»<sup>28</sup>؛ وبهذا تصبح الصورة البلاغية والمحسنات البديعية من التقنيات الحجاجية التي تستخدم في الخطاب الحجاجي لإقناع المتلقي أو لاستجلاب موافقته؛ لأنه يعتبر الصورة تعبيراً حجاجياً إذا استتبع تغييراً في الأفق، فبدا استعمالها عادياً بالنسبة للمقام الجديد، على خلاف ذلك لا يستتبع انخراط المستمع في الشكل الحجاجي، فإن الصورة ستظهر كمحسن، أي كصورة أسلوبية، بوسعها أن تثير الإعجاب، ولكن ذلك يظل في المستوى الجمالي.

فبيرلمان يريد أن يُخرج البلاغة من مجالها التحسيني إلى مجالها الحجاجي التداولي، والصور المقصودة عند "بيرلمان" هي نفسها الصور التحسينية الجمالية مثل التمثيل والتشبيه والاستعارة...، فهو يريد أن يصل إلى فكرة أن هذه الصور الجمالية يجب أن توظف لغاية حجاجية وليس لغاية جمالية فحسب.

نظر ميشال مايير إلى البلاغة على أنّها «ذلك الحوار حول المسافة بين الذوات أو هي ذلك الحوار حول المسافة بين الناس بصدد مسألة أو مشكل ما...هذه المنهجية البلاغية تؤسسها بنية عميقة...بنية الذات Ethos والآخر Patitos وبينهما اللوغوس Logos من حيث هو كلام ولغة قبل أن يكون عقلا من حين أنّ البنية الأساسية للبلاغة هي بنية إشكالية تعتمد سيرورة تساؤلوية Questionnement تقصي من فضائها الأجوبة الضرورية والنهائية»<sup>29</sup>، لقد تجاوزت البلاغة عند مايير حدود فن التعبير، بل اعتبرها طرحاً إشكالياً يُعنى بكل القضايا داخل نظام اللغة وخارج الذاكرة والعقل، حيث ربطها بالمساءلة الحوارية والآليات الرياضية والمنطقية التي تصب في النظرية الحجاجية.

في حين يقول أوليفي روبول A.Reboul أثناء حديثه عن البلاغة «...لن نبحت عن جوهر البلاغة لا في الأسلوب ولا في الحجاج، بل في المنطقة التي يتقاطعان فيها بالتحديد، بعبارة أخرى ينتمي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث: المتعة والتعليم والإثارة مجتمعة متعاضدة ، كل خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعمتين بالحجاج»<sup>30</sup> ، لقد جمع أوليفي البلاغة في شيئين اثنين الأسلوب الذي يضيف على الخطاب الجمالية والمتعة...، وكل ما هو حجاجي يضيف على الخطاب طابعه الإقناعي. يقول روبول كذلك أثناء حديثه عن علاقة البلاغة بالحجاج: « لا مفر من البلاغة لأي حجاج دون أن يؤدي ذلك إلى التحريض»<sup>31</sup> ، وهنا وُحِدَ بين البلاغة والحجاج؛ لأنّ العناصر البلاغية توفر للخطاب عناصر سحرية وجدانية جمالية، فإذا كانت حججا فقد يستطيع المتكلم أن يؤثر في المتلقي وأن يوجهه إلى الوجهة التي يريد.

ومن خلال حديثنا عن البلاغة الحجاجية يمكن أن نختزلها في جملة واحدة وهو أن وراء كل حجاج بلاغة ووراء كل بلاغة حجاج، لأن مدار كل منهما هو الإغراء والإغواء وهذا قصد الإمتاع والإقناع معا.

وبعد هذه الرؤية للحجاج والبلاغة الجديدة، التي جعلت التمثيل آلية من الآليات الحجاجية، والتي لا يمكن للخطيب أو الشاعر أو المتكلم بصفة عامة أن يستغني عنه في إنجازاته الكلامية، لما يحمله من قوة حجاجية تسهم في الإفهام والإقناع مع التأثير في المتكلم، يجدر بنا الحديث ههنا عن التمثيل الحجاجي بكل أبعاده، وذلك للمس ما يلعبه من دور فعّال في النظرية الحجاجية.

5- حجاجية التمثيل: يعدّ التمثيل من أهم وسائل الحجاج، فهو يتموضع ضمن مستويات الحجاج المعروف عند أهل الاختصاص، وليس التمثيل بمصطلح جديد في البلاغة العربية، بل ورد متناثرا في مصنفات عديدة، فنجد مثلا في وصف عبد القاهر الجرجاني: « واعلم أنّ مما اتفق عليه العقلاء أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت باختصار في معرضه، ونقلت عن صورعا الأصلية إلى صورته، كساها أهبة، واكسها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لهاودعا القلوب إليها»<sup>32</sup> ، وهذا مما يشير به إلى أثر فعله في النفوس ودوره في تحديد وجهتها.

ويبرز جانب منه فيقول في نص موال: « وإن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أهر»<sup>33</sup>؛ فالتمثيل بهذا إذا حُمِلَ وظيفية الحجاج تقلّد بعدا استدلاليا، يهتم بأن تأتي بمعنى ثم تؤكد بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على حجته»<sup>34</sup> ، وذلك لإفهام المتلقي وتقريب الصورة إليه، ليحصل إقتناعه؛ لأنّ تحقق الحجاج هو حدوث

## العلاج بين المفهوم والتطبيق..... مجلة فصل الخطاب

فعل الإخضاع للمتلقى من قبل المتكلم في توجيه ذهنه إلى فكرة أو رأي معين، وفق آليات وأدوات ومستويات تتعلّق في هذه الحالة بمستوى التمثيل.

تكمن قوة التمثيل في كونه حجة عقلية إقناعية تأثيرية، لا يصل إليه بالتصريح وإنّما عن طريق التأويل والاستدلال، والتمثيل يؤثر في المعاني ويقع فضله « في طريق إثبات المعنى دون المعنى»<sup>35</sup>، فهو يعمل على تثبيت المعنى الضمني للملفوظات.

ولتوضيح مدى مطابقة هذا المعنى لما جاء من تمثيلات في الأحاديث النبوية نذكر قوله "صلى الله عليه وسلم": ﴿مَنْ لَعِبَ بِالزَّرْدَشِيرِ، فَكَأَنَّمَا صَبَّغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ﴾<sup>36</sup>، أراد "عليه الصلاة والسلام" أن يحذر من اللعب بالزردشير، فلم يستعمل الكلام العادي والمباشر كقوله مثلاً: "اللعب بالزردشير حرام فلا تقربوه"، وإنّما اعتمد التمثيل كآلية حجاجية ذات تأثير قوي على المتلقي، فجمع بين اللاعب بالزردشير والصابغ يديه بدم الخنزير؛ أي أكل لحم الخنزير، والغاية من ذلك هو تقريب الصورة من المتلقي أكثر فهو على علم بمسألة حجاجية هي حرمة لحم الخنزير على المسلم ومن ذلك أيضاً تحريم اللعب بالزردشير.

يعتبر التمثيل « وسيلة حجاجية ذات تأثيرات في المتلقي من جهات عدة فهو خطاب للعقل بوصفه ينقل العقل من المعنى في الحالة التصويرية العادية إلى الحالة التصديقية لأنّه بمثابة إحضار المعنى المدعى ليشاهد كما هو في الواقع»<sup>37</sup>، فالتمثيل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين، يتم استنتاج الأولى بالتماثل مع الثانية.

من ذلك قوله "صلى الله عليه وسلم": ﴿أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَوَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا، وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِيرُ عَلَيَّ أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا﴾<sup>38</sup>، تمكّن النبي "صلى الله عليه وسلم" أن يربط صورة دخول المرأة عليه في أحد المجالس وهي تحمل صغيرها، وبين رحمة الله عز وجل؛ وهذا التمثيل زاد الحديث قوة حجاجية تمثلت في استنتاج المتلقي من الموقف رحمة لله على عباده التي تفوق رحمة الأم التي ذكرها بها النبي "صلى الله عليه وسلم" من حب وعطف وحنان المرأة على فلذة كبدها والتي تجعلها تضحي بنفسها مقابل حمايته.

يرى بيرلمان Perelman أنّ التمثيل هو نمط من أنماط التدليل فهو يقول قاصداً التمثيل « يبدو من المحال جدا الاستغناء عنه كلما تطرق العقل لميدان جديد أو مألوف قليلاً»<sup>39</sup>، فالتمثيل بهذا يحتل مكانة مرموقة في الابتكار؛ لأنّه يقيم علاقات بين الأشياء عن طريق المشابهة، فهو حجة تقوم على المشابهة بين حالتين بالاستناد إلى القياس والاستنتاج من خلال مقدمة ثم استنتاج نتيجة تبني على المماثلة.

تنشأ الحجة التشبيهية للتمثيل «كمعادلة بسيطة تتغاضى عن اختلاف السياقات، فتخدع الأذهان بمظهرها الصارم، أو تنشيط الخيال بما تحمله من معلومات مملوسة»<sup>40</sup>، فالتمثيل إذا هو حجة تعتمد على المشابهة الكامنة بين الأشياء، فهو يقوم باسقاط «علاقات مستفادة سابقا على مجال مجهول أو يبدع علاقات جديدة من منطلق تشابه ما، فالذهن ينظر إلى ما يجري أمامه من خلال الأحكام التي تكونت فيه على ضوء الخبرة السابقة، ولا تُعرف بدون إسقاط المعروف، ولا وجود لذهن فارغ»<sup>41</sup>، فالحجاج ههنا هو آلية حجاجية تقوم على بنية الواقع.

ومن أمثلة ذلك ما جاء على لسان خاتم الأنبياء " صلى الله عليه وسلم": ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمَسْكِ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلِ الْمَسْكِ: إِذَا أَنْ يُحْدِثَكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ: إِذَا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً﴾<sup>42</sup>، استطاع النبي خلال هذا الحديث أن يبني تمثيله في تصوير الفرق بين الصحبة الصالحة والسيئة على الواقع، فانتقى صورة حامل المسك الذي يعطر من مرّ بجانبه حتى وإن لم يشتره للدلالة على الصحبة الحسنة التي ينتفع منها صاحبها، والنافخ في الكبر الذي يحرق ثيابك أو تجمع من خلال نفخته هذه رائحة كريهة للدلالة على الصحبة السيئة وما يترتب عنها من مساوئ وبلايا. وهذه الحجة المبنية على الواقع سهلت على المتلقي الفهم والإقتناع بطريقة ممتعة تكمن في التمثيل.

6- التمثيل وطرق صياغته عند النبي " صلى الله عليه وسلم": استخدم النبي " صلى الله عليه وسلم" طرقا وأساليب عديدة لإيصال المعنى إلى المتلقي، في هيئة لا لبس فيها، ولا خفاء، وإزالة كل ما يعترض المعنى من عقبات قد تُخفي بعضا من المقصود، أو تحجبه حجابا كاملا عن المتلقي، وكلما كان المعنى واضحا كان الأسلوب أبلغ، والمتكلم أفصح.

والذي لا شك فيه أن المعنى لا يصل إلى السامع عن طريق اللفظ وحده، وإنما تساعده أمور أخرى تتأزر معه في حمل المراد، وهي ما تسمى بالوسائل الحجاجية الإيضاحية، التي يستعين بها المتكلم من حركة وإيماء، أو رسم توضيحي، ومن هنا برّ بعض المتكلمين بعضاً، وعلا بعضهم فوق بعض، ومن هنا أيضا يفترق الأسلوب المقروء عن الأسلوب الذي يحمله صاحبه بنفسه ويلقيه على الحاضرين فيقف حيث أراد، ويصل حيث أراد، ويحرك يده أو رأسه، أو يشير بيده حيث أراد معنى خاصا.

ومن هنا كان لابد من إبراز دور هذه الوسائل الحجاجية مع التمثيل في حمل المعاني في تجلية المراد عند النبي " صلى الله عليه وسلم" كالاتي:

## المعاجم بين المفهوم والتطبيق..... مجلة فصل الخطاب

6-1- استعانة النبي صلى الله عليه وسلم بأصابعه: حينما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقرر أن بعثته مقاربة لقيام الساعة قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ، كَهَاتَيْنِ وَقَرْنَ بَيْنَ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى»<sup>43</sup>، واضح الدلالة في كون بعثة "النبي صلى الله عليه وسلم" أول أشراف الساعة، فرسالته آخر الرسائل، وأمه خاتمة الأمم، وبعثة "النبي صلى الله عليه وسلم" إيدان بقرب الساعة؛ لذا قرن النبي عليه السلام بين بعثته وبين قيام الساعة كما يقرن بين السبابة والتي تليها (أي الوسطى)، وفي ذلك إشارة إلى قربها الشديد .

وقد ذكر العلماء قولين في المراد بقرن السبابة والوسطى: الأول للمجاورة؛ أي ليس بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الساعة فبعثته بين يديها، والثاني: أن بين الساعة وبين بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما بين السبابة في قدر الطول، أي أن تاريخ الأمم على مر العصور هو مقدار طول الإصبعين، والزائد في الإصبع الوسطى يمثل المدة الباقية من الدنيا منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة.

والأرجح أنه إشارة لقرب وقوعها؛ لذا عبر "النبي صلى الله عليه وسلم" بأن الساعة كادت تسبقه، وفي رواية قال "صلى الله عليه وسلم": «بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقَتْ هَذِهِ هَذِهِ لِأَصْبُعَيْهِ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى»<sup>44</sup>. وقد نقل ابن حجر عن القرطبي قوله: «حاصل الحديث تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها» ثم عقب عليه بقوله: «سياقه يفيد قربها وأن أشرافها متتابعة كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (سورة محمد. الآية 18) وفي تفسير معنى الحديث دائما يقول الضحّاك: أول أشرافها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، والحكمة في تقدم الأشراف بإقظ الغافلين وحثهم على التوبة والاستعداد، وقيل معنى الحديث أنه ليس بيني وبين القيامة شيء، هي التي تليها كما تلي السبابة الوسطى»<sup>45</sup>، ومن هنا ندرك أنّ اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم على أصابعه زادت من تقريب الفكرة إلى المؤمنين قصد تحذيرهم ولفت انتباههم للاهتمام باليوم الموعود.

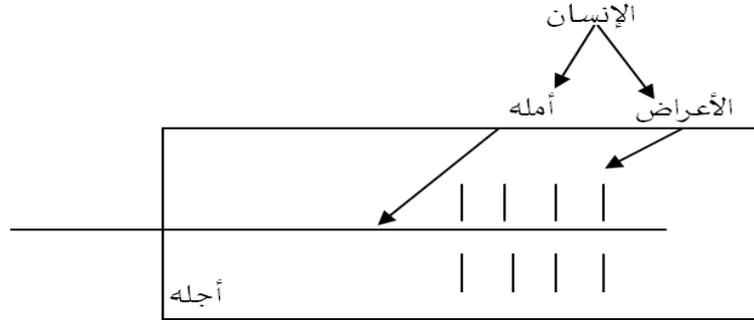
وبنفس الإشارة يقول "صلى الله عليه وسلم": «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا»، وقال بإصبعيه السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى»<sup>46</sup>؛ فكافل اليتيم هو القائم بأمره من نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك؛ وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه أو من مال اليتيم بولاية شرعية؛ وسواء أكان الكافل قريبًا له، كجدّه وأمه وجدته وأخيه وأخته وعمه وخاله وعمته وخالته وغيرهم من أقاربه، أو كان أجنبيًا عنه. وإشارته هذه بين السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى؛ تعني أن بين درجة النبي صلى الله عليه وسلم وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة

والوسطى، لبيان شدة قرب كافل اليتيم منه صلى الله عليه وسلم، ويكفي في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسبابة إصبع أخرى<sup>47</sup>.

ويرى ابن عبد البر (ت463هـ) أنّ هذه فضيلة عظيمة إلى كل من ضم يتيماً إلى مائدته وأنفق عليه من طوله، فإذا كان مع ذلك من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، نال ذلك؛ «وحسبك بها فضيلة وقربة من منزل النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة؛ وليس بين السبابة والوسطى في الطول ولا في اللصوق كثير، وإن كان نسبة ذلك من سعة الجنة كثيراً»<sup>48</sup>.

وحين أراد "صلى الله عليه وسلم" أن يوضح قوة العلاقة التي تجمع بين المؤمنين شبك أصابعه علامة على ذلك قائلاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ثم شبك بين أصابعه»<sup>49</sup>؛ أي أدخل بعضها في بعض؛ بمعنى أن الأصابع يمسك بعضها بعضاً، إذا أدخل البعض في البعض فيما بينها، فكذلك المؤمن للمؤمن يشد المؤمن أخاه كما أن البنيان يشد بعضه بعضاً، أي اللبنة تماسك بالطين الذي يجعل بينها أي كانت تلك اللبنة، اللبنة من الطين، أو من البلوك ونحوه، فجعل الله تعالى بين المؤمنين مودة ورحمة وتعاطفاً، فهذه المحبة تقتضي أن بعضهم يحب بعضاً، وأن كلا منهم يحب الآخر، وأنهم يتساعدون ويتعاونون ويتماسكون، كما أن البنيان يمسك بعضه بعضاً، وقوله يشد بعضه بعضاً هي وجه الشبه، وهذا الوجه لم يقتصر فيه على اللفظ المنطوق، بل تحركت الأصابع لترسم للمشاهد هذه العلاقة القوية بين المؤمن وأخيه، وهذا العون المتواصل الذي لا ينقطع أبداً، فالمقصود هنا أن يكون المؤمن عوناً ونصيراً لأخيه، فما يحدث لأحدهما يحدث للآخر بلا فرق، فالسامع يدرك من هذه الحركة كل ما يتصوره من تماسك البنيان، وقوته، واتحاد عناصره.

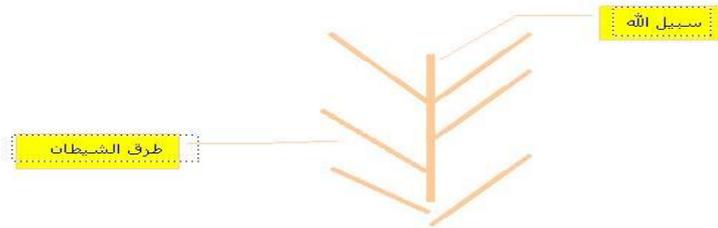
2-6- استعانة النبي صلى الله عليه وسلم بالرسم التوضيحي: لما تحدث "النبي صلى الله عليه وسلم" عن قضية اتباع سبيل الله وصراطه المستقيم والتحذير من سبيل الشيطان الأخرى «خَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجْلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»<sup>50</sup>، يمكننا تمثيل المخطط الذي استعان به النبي صلى الله عليه وسلم كالآتي:



أراد النبي أن يوضح لأصحابه أنّ أمل الإنسان يتجاوز عمره المحدود، والأمل ما تحبه النفس من طول عمر وزيادة غنى، ومعناه قريب من التمني، إلا أن الأمل يتقدمه فعل سبب، والتمني ليس كذلك. والأمل والتمني حضورهما في النفس كثير، لكنه أحياناً يزيد عن الحد الطبيعي عند البعض ليزاحم العمل، فيظل الإنسان يعيش آمالاً ومنى وهمية تُعده ولا تنهض به، تضره ولا تنفعه. فالأمل والتمني يكون كل منهما محموداً ونافعاً إذا تم توظيفهما في الخير، ليتطلع الإنسان بأمله، ويتمنى الحياة الحقيقية السعيدة التي لا يعترها انقطاع، ولا ينغصها نقص، ففيها كل ما يشتهي؛ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر أياً كان.

فالرسول صلى الله عليه وسلم استعان ههنا بالرسم التوضيحي وهو يعلم أنّ كل إنسان على ظهر الأرض إلا وترى أمله يفوق أجله، فربّما كان أجل أحدنا عشرين سنة، فترى أمله يصل إلى ستين أو سبعين سنة، فلم يجد النبي طريقة سوى رسم الخط الطويل الذي يمثل أمل الإنسان ويقطع بل يفوق أجله وهذه من أعظم الحجج التي استعملها النبي صلى الله عليه وسلم في تقويم وتعليم المؤمنين.

وقوله صلى الله عليه وسلم في بيانه صراط الله المستقيم: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام، الآية 153)، وهذا التمثيل هو كالاتي:



يبين النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ولأمته من بعدهم، مستعملاً في ذلك الرسم التوضيحي أو التفصيلي كوسيلة لترسخ المعنى في أذهانهم، وأهمية التمسك بالصراط المستقيم، وسماه سبيل الله، أي الذي وضعه وبين معالمه، هو الله جل جلاله، بالأدلة من الكتاب والسنة، لأن اتباع ذلك الصراط المستقيم، والحذر من سبل الشياطين من الجن والأنس، هو ما تحتاجه الأمة الإسلامية، للخروج من مأزقها، والسلامة من وهنها، والعودة إلى عزها وكرامتها، فقد هانت ووهنت بسبب تركه والاستجابة للسبيل التي حذر منها صلى الله عليه وسلم. فكأن الصورة تضع أمام السامع العلامات الإرشادية التي تهديه إلى طريق الله، طريق الرشاد، وعن هذا الحديث يقول القاضي أبو الفرج (ت 390هـ): " وهذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم والتمثيل من أبين الأقوال البليغة وأفصحها، وأرصن الأمثال البليغة المضروبة الصحيحة وأوضحها، وذلك أنه خط خطأ جعله مثل الصراط في استقامته إذ لا زيف فيه ولا ميل، ثم خط خطوطاً يمنية وشأمة أخذه في غير سمتة وجهته، تفرق بمن سلكها واتبعتها عن السبيل التي هي سبيل الهدى، والنجاة من مرديات الهوى، وبهذا جاء وحي الله وتنزله في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال: جل ذكره: " شرع لكم من الدين ما وصي به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " فدل هذا على مثل ما دلت عليه الآية التي تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخبر الذي رويناها فقال تعالى: " إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء " وقال: " فتقطعوا أمرهم بينهم زمراً كل حزب، بما لديهم فرحون " في كثير مما يضاهاه هذا المعنى"<sup>51</sup>

3-6- استعانة النبي صلى الله عليه وسلم بأدوات توضيحية أخرى: بالإضافة إلى الوسائل التوضيحية السابقة الذكر التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم في عملية تبليغه، اعتمد أيضاً على وسائل أخرى داعمة لكلامه، من ذلك استعانته بأدوات من البيئة، كاستخدامه لعود يُغرز، " فقد غرز عليه الصلاة والسلام بين يديه غززا، ثم غرز إلى جانبه آخر، ثم غرز الثالث فأبعده، ثم قال: هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال، هذا الإنسان، وهذا أجله، وهذا أمله، يتعاطى الأمل والأجل يختلجُه دون ذلك."<sup>52</sup>، فطولاً لأمل يُنسي الإنسان الآخرة ويجعله مسلوب الهمة والإرادة، فتراه لاهياً متناسياً لهدم اللذات، فتفتقر همته لطلب المعالي، فيصبح راکناً للدنيا وملذاتها، حتى لا يكون له همٌّ سواها.

ومن ذلك أيضاً استخدام "النبي صلى الله عليه وسلم" الحصى ليدعم ويعزز كلامه ويلفت انتباه السامع، فعن بريدة رضي الله عنه قال: "قال النبي: ﴿ هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذِهِ وَهَذِهِ؟ وَرَمَى بِحَصَاتَيْنِ. قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هَذَاكَ الْأَمَلُ، وَهَذَاكَ الْأَجَلُ ﴾."<sup>53</sup>، ومعنى مثل هذه وهذه " أي هذه الحصاة وهذه الحصاة " ورمى بحصاتين " أي إحداهما قريبة والأخرى

## المجاد بين المفهوم والتطبيق.....مجلة فصل الخطاب

بعيدة والجملة حالية " هذاك " أصله ذا فزيدت الهاء في أوله والكاف في آخره أي هذا الحصاء المرمي بعيدا " الأمل " أي مرجوه ومأموله الذي يظن أنه يدركه قبل حلول أجله " وهذاك " أي الحصاء المرمي قريبا " الأجل " أي موته فيشتغل الإنسان بما يأمله ويريد أن يحصله فيلحقه الموت قبل أن يصله<sup>54</sup>.

فالحديث ينقل للمتلقي بعد المسافة بين الأمل والأجل، وكان من الممكن أن يقال: إن الأمل بعيد جدا، والأجل قريب جدا، وهكذا ينتقل المعنى من خلال اللفظ إلى الذهن، فيقوم الذهن بتصور المسافة الفارقة بينهما، ويظل المعنى حبيس كل واحد بحسب ما يراه من بعدٍ بين الأجل والأمل، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سلك طريقا آخر للبيان وهو طريق التمثيل الحسي، فأشرك الصحابة معه في تصوير المعنى، حيث عاينوا بأنفسهم هذا البعد بين الأمرين، فأخذ حصاتين، ثم رمى بالأولى في جهة، وبالأخرى في الجهة المقابلة، ثم حرك الأذهان، واستثارها بالسؤال عن هذا الذي يروونه أمامهم، من بعد بين الحصاتين، وهنا أصبح الذهن في أتم الاستعداد لتلقي المعنى دون لبس، فقال: " هذاك " بالإشارة إلى البعيد الأمل " وهذاك " بالإشارة أيضا إلى البعيد: الأجل، فلقد اتسعت المسافة بينهما، وهاهم يرون ذلك عيانا، وليس الخبر كالمعاينة.

إنّ اعتماد النبي "صلى الله عليه وسلم" لمثل هذه الوسائل الإقناعية هو عين الحجاج، فقد لفت انتباه المسلمين بهذه الوسائل التوضيحية وزاد من التأثير فيه قصد تقريب المسافة بين المثلثتين في التمثيلات التي اعتمدها كحجج مبنية على البرهان والاستدلال العقلي.

### مراجع البحث وإحالاته:

- 1 : صابر الحباشة، التداولية والحجاج، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، سوريا، ط1/2008، ص15.
- 2 : ينظر: المرجع نفسه، ص21.
- 3 : CH.PERELMAN , LE CHAMP DE L'ARGUMENTATION, P23. نقلا بوزناشة نورالدين ، الحجاج في الدرس اللغوي، مجلة علوم إنسانية، شتاء 2010، العدد44
- 4 : محمد سالم ولد محمد أمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 3، يناير – مارس 2000، ص61.
- 5 : ينظر محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، دار الأمان، الرباط، ط1/2005، ص371.
- 6 : محمد سالم ولد محمد أمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص69.
- 7 : ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص306-307.
- 8 : VOIR : CH.PERELMAN , LE CHAMP DE L'ARGUMENTATION, P23. نقلا بوزناشة نورالدين الحجاج في الدرس اللغوي، مجلة علوم إنسانية، شتاء 2010، العدد44

- 9 : عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكلياني للنشر، تونس، ط1/2011، ص24.
- 10 : ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، ص25.
- 11 : المرجع نفسه، ص26.
- 12 : سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ط1/2008، ص242.
- 13 : ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، ص26.
- 14 : سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص288.
- 15 : عز الدين الناجح، العامل الحجاجي والموضع، ضمن كتاب الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، دارورد الأردنية، ط1/2001، ص97.
- 16: J.C.Anscombe et Ducrot, L'argumentation de langue.philosophie et langage, 3em édition. Mardaga. P08.
- 17 : طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط1995، ج1، ص110.
- 18 : Voir: Introduction à la sémiologie, texte image, groupe de chercheures, OP4, Alger, P16.
- 19 : ينظر: عبد القادر بوزيدة، نموذج المقطع الحجاجي، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 12-1997، ص306-307.
- 20 : الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي " عناصر استقصاء نظري"، ضمن كتاب " الحجاج مفهومه ومجالاته"، إعداد وتقديم، حافظ اسماعيل علوي، عالم الكتب الحديثة، الأردن، 2010، ج3، ص45.
- 21 : Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca : Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique, Presses Universitaires de France, Paris, 1958.
- 22 : رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد8، أكتوبر – ديسمبر 2008، ص29.
- 23 : علي الشعبان : الحجاج بين المنوال والمثال - نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري- ، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط 1/2008، ص1.
- 24 : ينظر: عبد الله صولة: الحجاج في القرآن الكريم، ص2.
- 25 : ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص21.
- 26 : صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق – سوريا، ط1/2008، ص16.
- 27 : Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca: Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique,, p: 36.
- 28 : Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca: Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique, p229.
- 29 : محمد سالم محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بريلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد3، يناير - مارس 2000، ص73.
- 30 : وليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ ترجمة محمد العمري ضمن كتابه البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، ط 1/2005، ص22.
- 31: المرجع نفسه، ص22.
- 32 : عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص115.

- 33 : المرجع نفسه، ص 115.
- 34 : علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج- رسائله أنموذجا -، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مملكة البحرين، ط1/2010، ص64.
- 35 : عبد القاهر الجرجاني، دلالات الإعجاز، ص 64.
- 36 : رواه مسلم، عن حديث سليمان بن بريدة، كتاب الشعر، باب تحريم اللعب بالتردشير، ص 1140.
- 37 : حافظ اسماعيلي علوي، الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1/2011، ص 25-26.
- 38 : رواه البخاري، عن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتاب الآداب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث: 5999، ص 1239.
- نقلا بن ناصر. Chaim Perelman, logique et argumentation, presses universitaires de Bruxelles, 1968, p 134 : 39
- البغزاتي، الصلة بين التمثيل والاستنباط، ضمن كتاب التحايج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 29.
- 40 : محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص29.
- 41 : بناصر البغزاتي، الصلة بين التمثيل والاستنباط، ص 29.
- 42 : رواه البخاري، عن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم الحديث: 5214، ص 1245.
- 43 : رواه البخاري عن حديث أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "بعثت أنا والساعة كهاتين"، رقم الحديث: 6505، ص1320.
- 44 : سنن الترمذي
- 45 : ابن حجر، فتح الباري، ج11، ص357
- 46 : رواه البخاري عن حديث سهل بن سعد، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، ص1240.
- 47 : ابن حجر، فتح الباري، ج10، ص 436.
- 48 : ينظر: ابن عبد البر، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، تحقيق عبد المعطي أمين قلعي، دار الوعي، القاهرة - مصر، ط1/1993: مج8، ص 434.
- 49 : رواه البخاري، عن حديث أبي موسى، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، ص1243.
- 50 : رواه البخاري، عن حديث عبد الله، كتاب الرقاق باب في الأمل وطوله، رقم الحديث: 6417، ص 1307.
- 51 : أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري النهرواني، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1/2005 م، ص19.
- 52 : علي بن ابي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومن يع الفوائد، تح أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط1/2001، باب ما جاء في الأجل والأمل، رقم الحديث:17861.
- 53 : محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوذى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، من سنن الترمذي، كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل ابن آدم وأجله وأمله، رقم الحديث:2870، ج1، ص140.
- 54 : ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص140.